الشعر الملحون في منطقة الحضنة سجل للثورة التحريرية الكبرى
– الشاعر محمد بن الزوالي أنموذجا

The melodious poetry in Alhodna: a log of the major revolution of liberation -The poet Mohammed Ben Ezzaouali as a sample-

1- زين حفيظة*، جامعة المسيلة (الجزائر)
Hafida.zine@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2023 /04/30 تاريخ القبول: 2023 /05/21 تاريخ النشر: 2023 /06/04

ملخص: يعتبر الشعر عامة والشعر الملحون بخاصة من النصوص الأدبية التي شكلت وعاء مهما للثورة التحريرية في الجزائر، حيث يمكن للمتلقي والقارئ المعاصر أن يعود إليه كشاهد تاريخي مهم للوقوف على ثورة شعب لن تتكرر في التاريخ ، ثورة عظيمة وقفت في وجه أبشع استعمار في الفترة الحديثة، حيث كان الشعر الملحون سجا وثق فيه شعراء الملحون أحداث ووقائع الثورة الجزائرية التحريرية الكبرى، وجرائم الاستعمار فصور وحشية فرنسا واعتداءاتها على الجزائريين، كما حملت قصائد الملحون قوة وصمود الشعب الجزائري ومجابهته للمستعمر في معارك غير متكافئة عدة وعتادا. ولم يتخلف شعراء الحضنة عن وصف هذه البطولات بل شكلت الثورة والوطن قضية مقدسة في شعرهم؛ حيث واكبوا الثورة وسجلوا أحداثها بدقة كبيرة من حيث الزمان والمكان والحدث، مما يجعل هذه النصوص تقف جنبا إلى جنب مع النصوص والوثائق التاريخية، وسنتطرق في دراستنا هذه للشاعر الحضني محمد بن الزوالي الذي ترك لنا إرثا شعريا مهما في الشعر الملحون الثوري، حيث لا يزال هذا الشعر مخطوطا ولم يدرس الكثير منه بعد.

كلمات مفتاحية: الشعر، الملحون ،سجل، الثورة الجزائرية، محمد بن الزوالي.

*- المؤلف المرسل

Abstract:
Poetry, in general, and the melodious poetry, in particular, are literary texts, which formed a significant basis of the revolutionary intellectuality in Algeria to which the contemporary reader and receptor may refer to learn more about a unique people's revolution against the most terrible colonization in the modern era. The melodious poetry formed a log in which the poets documented the revolutionary events and the colonization crimes. So, it depicted the French cruelty against the Algerians. The melodious poems have transmitted the Algerian people's strength and resilience in facing the better armed colonizer in disproportionate battles. The poets of Alhodna are among those who described these heroic events; they lived and accurately recorded them, in terms of place and time. So, these texts are as important as the historical documents. Through this study, we've addressed the poet of Alhodna Mohammed Ben Ezzaouali, who left a significant poetic heritage of revolutionary melodious poetry, which has been documented in many manuscripts, but a great amount of it hasn't been studied yet.
Keywords: poetry; melodious; log; the revolution of liberation; Mohammed Ben Ezzaouali.

مقدمة:

تعتبر العلاقة بين الأدب والتاريخ علاقة طبيعية إن لم نقل ضرورية حيث يشكل التاريخ مادة دسمة وثرية للأديب عموما والشاعر بخاصة ، ينهل منها ومعينا لا ينضب يستقي منه موضوعاته ومضامينه، في حين يعتبر الشعر وثيقة مهمة للمؤرخ يستند عليه وقد يعتبره شاهدا تاريخيا مهما من الشهادات الحية والأكثر مصداقية من بعض الوثائق التي قد تتوفر للمؤرخ باعتبار الشاعر يكتب يوميات مجتمعه وبيئته الثقافية والاجتماعية والسياسية التي يعيشها ويتماس معها فيكون أقرب للحدث وأدق توثيقا للحقائق وبخاصة إذا كان معاصرا للحدث أو للمرحلة التي يكتب عنها. من هنا كان الشعر الملحون الجزائري عامة و الحضني بخاصة وعاء لأحداث الثورة التحريرية الكبرى وسجلا لأحداثها وشاهدا تاريخيا لما اقترفه الاستعمار في الجزائر وفي منطقة الحضنة، ولأن الاستعمار عمل على

قمع كل وسائل المقاومة لدى الجزائريين كما عمد إلى القضاء على المدارس والكتاتيب وتجهيل الشعب، فقد لجأ الجزائريون إلى وسائل تقليدية لا يمكنه أن يقيدها أو يسيطر عليها من بينها الكلمة الشفوية التي لا قبل للمستعمر على مجابهتها، حيث عمل الشعر مكان الصحافة والإعلام فكان وسيلة لنقل الأخبار والشكوى وتصوير جرائم الاستعمار البشعة والتنديد بها، ولم يتوقف عند السرد والوصف لحال الواقع بل وُجِهت قصائد الملحون وأغانيه لتحفيز المقاومين وحث الشعب على الالتفاف حول الثورة والثوار وكره الفرنسيين، كما عمل الشعر الفصيح والشعبي منه على تسويق الصورة الإجرامية للاستعمار وتصوير ما يحدث داخل الجزائر من مجازر وجرائم ونقلها إلى شتى مناطق القطر الجزائري وكذا خارج الجزائر. وفي الوقت نفسه حملت قصائد الملحون الحضني كما في كل مناطق القطر الجزائري كلها صورة حية على بطولات الجزائريين واستبسالهم في سبيل حريتهم وحرية بلادهم، فرسم الشعراء ملاحم خالدة عن الثورة التحريرية الكبرى متتبعين الحدث الثوري بدقة في بوادي وحضائر وطننا الحبيب، ونذكر منهم لخضر بن خلوف الذي أصبحت قصائده أشهر من نار على علم بالإضافة إلى شعراء آخرين من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إل الغرب. من هنا جاءت دراستنا هذه التي سنركز فيها على أيقونة من أيقونات الشعر الملحون الحضني وهو "محمد زوالي" المدعو محمد بن الزوالي، لنبين مدى تمظهر كفاح الشعب الجزائري في شعره وكيف ارتسمت أحداث الثورة في قصيده الشعبي من خلال بعض قصائده التي خصت الثورة والكفاح المسلحين.

1. من هو محمد بن الزوالي[1]:

محمد بن زوالي من مواليد 29 ماي 1910 ببلدية المطارفة – ولاية المسيلة – يعتبر من أبرز شعراء الملحون في منطقة الحضنة، اسمه الحقيقي محمد زوالي ويعرف بابن الزوالي، ولد سنة 1910 م ببلدية المطارفة ولاية المسيلة، بدأ حفظ القرآن في كتاتيب القرية في عمر السابعة، بدأ قرض الشعر في السادس والعشرين من عمره، كان جنبا إلى جنب مع إخوانه مجاهدي منطقة الحضنة ،حيث كلف

[1] اعتمدت في التعريف بالشاعر على قصيدة (يا محبوب نحدثك) كتبها الشاعر عن سيرته الذاتية منذ ولادته حتى الاستقلال، بالإضافة إلى بعض المعلومات تحصلت عليها من عند ابنه مصطفى.

بالاتصالات بين خلايا المجاهدين في المنطقة[2]، شارك في الحرب العالمية الثانية 1939-1945 قسرا تحت طائلة قانون التجنيد الاجباري الصادر عن السلطة الاستعمارية في 03 فيفري 1912 ، عايش الشاعر ظلم الاستعمار منذ فتح عينيه على الحياة حيث ناضل مع اخوانه الجزائريين وعذب وسجن فدخل سجون الاستعمار ما بين 1961/1960. و بعد الاستقلال شارك في عدة مهرجانات وطنية لتمجيد الثورة والاحتفال بالنصر الجزائري ، ونال عدة جوائز وتكريمات، كما نال شهادة وسام المقاوم سنة1984 من طرف وزارة المجاهدين. الشاعر ترك الشعر إرثا كبيرا من الشعر الملحون يضم أكثر من ثلاثمئة قصيدة شعرية في مختلف الأغراض والموضوعات، تغنى بها الكثير من الفنانين، وهناك رصيد كبير من القصائد التي أرخ فيها وبها الأماكن والأزمنة والشخوص.

وهو من الشعراء الذين لم يوفوا حقهم في الدراسات الأكاديمية والنقدية، فرغم أنه ترك أكثر من ثلاثمئة قصيدة – حسب شهادات معاصريه وباحثين في الشعر الشعبي بمنطقة الحضنة - إلا أن هذا الإرث الثقافي والتاريخي لم يخرج إلى النور بعد ولم ينشر بعد ولا يزال مخطوطا، ولا يستطيع الطلبة والباحثون الاطلاع على قصائده مختلفة الموضوعات والأغراض والمتميزة بخصائص لغوية وفنية تميز صفتها التجنيسية كشعر شعبي حضني. توفي المجاهد محمد بن الزوالي في 12 سبتمبر 1996.

[2] ورد الحديث عن مهامه الجهادية في شريط فيديو مصور أجري مع أفراد عائلته وأقاربه الذين عايشوه في الفترة نفسها https://www.youtube.com/watch?v=z9BxwHswLxQ

والقصائد التي سندرسها هنا عبارة عن مخطوطات تحصلنا عليها من عند ابنه مصطفى بن محمد بن زوالي. ويمكن أن نعتبر محمد بن زوالي من أهم شعراء الملحون الذين كتبوا الثورة في شعرهم وذلك لأنه عاصر المقاومة الجزائرية للفرنسيين كما أنه عاش الثورة التحريرية بكل آلامها وآمالها، وعايش فرحة الجزائريين بنيل الاستقلال ونيل الحرية، مما يجعلنا نصنف شعره عن الثورة من أهم الوثائق الحية التي تؤرخ للثورة الجزائرية الكبرى. لذا سوف نخصه بهذه الدراسة لنبين كيف تمظهرت الثورة وأحداثها في شعر محمد بن زوالي.

2. مفهوم الشعر الملحون:

هو نظم الشعر بلغة شعبية مهذبة ، يفهمها المتعلم والأمي على السواء، " وهو الشعر الذي يستمد كلماته و ألفاظه وطريقة أدائه، ومعانيه وأسلوبه من الحياة العامة أو الشعبية، حيث يكتب بكلمات من اللهجة المحكية بين الناس ولا يستخدم الفصحى، لكنه يختار أجمل التوصيفات التي يقولها الناس في كلامهم ولهجتهم المحكية[3]، وقد عرفه الدارسون والنقاد بعدة تسميات من أشهرها نجد الشعر الشعبي و الشعر العامي والشعر الملحون، فقد ذهب التلي بن الشيخ إلى تبني مصطلح الشعر الشعبي قائلا " ...في اعتقادي أن تسمية الشعر الشعبي تنسجم مع الإطلاق العام للأدب الشعبي "[4]، وذهب " عبد الله الركيبي" في دراسة له عن الشعر الجزائري إلى مصطلح "الشعر الملحون " تماشيا لما شاع في البيئة الأدبية قائلا: " لما كان الشعر الملحون في معظمه تقليدا للقصيدة المعربة ، فإن الفرق بينه وبينها هو الإعراب ، فهو إذن من لحن يلحن في الكلام إذ لم يراع الإعراب والقواعد اللغوية المعروفة "[5]. وهو يركز على مسألة اللحن أي الخطأ من حيث كون الشعر الشعبي لا يخضع للإعراب ولا لقواعده –كما يرى صفي الدين الحلي – فالفرق بين الشعر الفصيح – أي الرسمي –

[3] مرسي الصباغ، في الثقافة الشعبية نقلا عن: باية كاهية الأدب الشعبي الجزائري، نواصري للطباعة والنشر، الجزائر 2022.ص 41

4 التلي بن الشيخ، دور الشعر الجزائري الشعبي في الثورة من 1830 إلى 1945، مخطوط 1977. ص 377.

[5] عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث،ج 1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.ص 363.

والشعر الشعبي يتوقف على مسألة الإعراب فحسب. في حين ذهب المرزوقي إلى : " إن الشعر الملحون الذي نريد أن نتكلم عنه اليوم فهو أهم من الشعر الشعبي، إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكا له ، أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي ، فهو من لحن يلحن في كلامه أي أنه نطق بكلام عامي أو بلغة عامية غير معربة." 6 ، أورد " عباس الجراري " أكثر من إحدى عشرة اسما أطلقها الشعراء الشعبيون المغاربة على أشعارهم منها : " الزجل ، الملحن ، الموهوب ، السجية ، الكلام ، النظم، أو النظام، الشعر، القريض، الأوزان ، " اللغة أو الكلام "، العلم، القريحة ويريدون بها القريحة الشعرية " [7]

ولأن معظم المصطلحات تتقارب وتتقاطع في نقاط كثيرة فإننا سنختار تسمية الملحون باعتبار ما اشتهر في منطقتي الأوراس والصحراء. إذن الشعر الشعبي أو الملحون " يطلق على كل كلام منظوم من بيئة شعبية بلهجة عامية، تضمنت نصوصه التعبير عن وجدان الشعب وأمانيه، متوارثا جيل عن جيل عن طريق المشافهة، وقائله قد يكون أميا وقد يكون متعلما بصورة أو بأخرى مثل المتلقي أيضا"[8].

تتميز لغة الملحون بكونها عامية لها أصول عربية فصيحة، بعضها محلي والبعض الآخر أجنبي دخيل ناجم عن الاستعمار والغزو الثقافي ، و أحيانا تختلف الألفاظ الشعبية عن الفصحى في النطق حيث إن " الأدب الشعبي يمتاز بلغة معينة من الصعب وصفها ، و لكنها على وجه القطع ليست عامية ، على أساس الترجيح فصحى راعت السهولة في إنشائها[9]. فهناك ألفاظ عامية لا يمكن إعادتها إلى أصل

- [6] محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، ط01،1967. ص 45.

[7] العربي دحو، **الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ح1، 1989. ص30.

[8] التلي بن الشيخ، دور الشعر الجزائري في الثورة من 1830 إلى 1945، ص395.

9 محمود ذهني: **الأدب الشعبي العربي**، مفهومه ومضمونه، نقلا عن باية كاهية: الأدب الشعبي الجزائري، ص 46.

عربي فصيح ، ومما جعل العامية من أهم مقومات التعبير الشعري الشعبي كونها اللغة التي يستخدمها العامة ، و الشاعر إنما يخاطب هذه الجماهير ويعبر عن حاجتها الاجتماعية النفسية[10].

3. الأهمية التاريخية لشعر الملحون:

اعتبر الباحث في التراث الشعري الملحون، ياسين خالد شهلال، أنّ أهمّية تدوين وجمع وتصنيف هذا التراث الشفوي، تكمن في كونه "وثيقة حيّة تُسهم في التأريخ لمختلف المراحل التي عرفتها الجزائر، ولمقاومتها ضد الاستعمار، باعتبار أنّ الشاعر كان شاهداً يجمع المعلومات التاريخية ويؤرّخ لها عبر قصائده الشعرية، ليحفظ بذلك أجزاء مهمّة من الذاكرة الجماعية" إذن الشاعر الشعبي هو لسان حال الشعب والجماهير، وكثيرا ما كان يسبق الشعر الشعبي الفصيح في إعلان مواقف الرفض وفي انتقاد الاوضاع[11]. لقد شكلت ثورة التحرير قضية مهمة ومركزية لدى الشعراء الشعبين، فكان ظهورها مباشرا كموضوع مركزي في القصيدة الشعبية أو غير مباشر حيث يذهب الشاعر لذكر بعض أحداثها ووقائعها متفرقة، مما يجعل قصائد الملحون تحتل مكانة مهمة لدى القارئ والمتلقي. كما تؤكد هذه الحقيقة الباحثة أمال لواتي التي ترى أنه " يصبح التداخل بين الشعري والتاريخي مشروعا لأن النص الشعري يترجم عن وعي رسالي يحققه الشاعر الواعي بالتاريخ المؤيد بخصوصيات حضارية مما تجعل المؤرخ لا يستغني عن الشعر باعتباره روح التاريخ، حيث لا يقرا تاريخ الجزائر بمعزل عن هذه الخصوصية التاريخية وإن كانت غاية الشاعر الجزائري ليس سرد مجموعة من الوقائع التاريخية...واستطاع الشاعر الجزائري في كل المراحل أن يعايش منظومة الواقع وأن يسجل حضوره كطرف مشارك في الزمن، ولعل حضوره هذا يساوي أو يفوق حضور بعض السياسيين والمؤرخين أو المثقفين الذين لم يستطيعوا مواكبة خصوصيات حركة التاريخ الجزائري"[12]

---

[10] التلي بن الشيخ، **دوره الشعر الجزائري الشعبي في الثورة**، ص397.

[11] نور سلمان، **الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر**، دار العلم للملايين، لبنان،1989 . ص 140

[12] آمال لواتي: **الحدث التاريخي في الشعر الجزائري المعاصر**، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، عد15، ص 227-255

ولأن الكثير من الشعر الملحون يُحوَّل إلى أغاني شعبية فإنه يكون سهل الانتشار ويلاقي إقبالا لدى المتلقين بمختلف مستوياتهم، حيث سهلت هذه الخاصية أثناء الثورة انتشار الخبر والصورة عبر مناطق الوطن وبين الأهالي والمجاهدين، مما جعله ينتقل من الفن التعبيري إلى سلاح في وجه الاستعمار وتعتيمه.

4. الثورة التحريرية في شعر محمد بن الزوالي:

يعتبر الوطن قضية مقدسة عند شعراء الشعبي، ومنذ أن وطأت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر أصبحت الثورة وأحداثها مسؤولية ومهمة وطنية نضالية لا خيارا فنيا، مما جعل نصوصهم تتحول من التركيز على الشكل واللغة والأسلوب إلى التركيز على الموضوع فتحولت القصيدة الشعبية من موضوعات وأغراض الشعر المعروفة كالوصف والرثاء والغزل والمديح والهجاء لتعتنق الشعر الثوري المقاوم فركزوا كل اهتمامهم على الترغيب في الجهاد وتمجيد الثورة وأبطالها ووصف انتصارات وتضحيات الثوار والتغني بها وتحفيز الشعب والشباب على التضحية والوقوف في وجه العدو والالتفاف حول الثورة. فكانت كلمة الشاعر إلى جانب بندقية الجندي جنبا إلى جنب في الميادين، فكتبوا أشعارهم كلها للوطن؛ مثل قصائد الشاعر لخضر بن خلوف الذي أرّخَ بقصيدته المشهورة لـ"معركة مزغران" (1840) في مستغانم ضدّ الغزو الإسباني.

إننا عندما نقرأ قصائد محمد بن زوالي نقف على شعر يفيض بالروح الوطنية ووعي ونضج كبيرين بواقع الثورة ومعاناة الشعب الجزائري آنذاك، فالشاعر معايش للحدث مباشرة مما جعله ملما بأهم الأحداث التي ارتبطت بالثورة الجزائرية، وهو ما يعني أن شعره الثوري ليس انفعالا ناتجا عن تأثر فقط، بل هو حقائق وأحداث واقعية لثورة اندلعت وقرر شعبها وقادتها الانتصار. فنظم قصائده الثورية في موضوعات متعددة دارت حول تمجيد الثورة والثورات الشعبية وأبطالها وقادتها، بالإضافة إلى الوقوف عند المحطات الكبرى في مسيرة الكفاح الجزائري ضد المستعمر كأحداث الثامن ماي 1945، وكذلك التشهير بالخونة وصفات الخيانة وعواقبها وذكر جرائم الاستعمار البشعة وتصويرها تصويرا دقيقا، ثم الفخر بالانتصارات التي حققها أبطال الثورة المجاهدين وذكر أسمائهم بدقة، والافتخار بالعلم الوطني الذي يعتبر من علامات السيادة والحرية والعزة.

فيستهل الشاعر قصيدة (أشهد يا تاريخ) بالفخر والاستبشار بانتشار الثورة بين الناس وانتشار الوعي الثوري وظهور قادة ثوريين يسطرون المقاومة ويهندسونها يؤمنون بالنصر ولا يثقون في معاهدات أو وعود، لقد عرفوا حقيقة الاستعمار وآمنو بالشهادة أو الانتصار وأن الحقوق تأخذ ولا تعطى، يقول:

أشهد يا تاريخ سجل ما نهدر الحمد لله فاقت ضرك الناس

لاح الفجر بان باضياه أمنور وأحيات لقلوب وأصبحنا لاباس

ظهرو زعامة الي بيهم نفخر شرق وغرب تعينو ليها رياس

الشيخ امبديس تريخو سطر الحرية ما تجي باحديث الناس[13]

إذن يبدو الشاعر هنا فرحا ومستبشرا بالفجر الذي بزغ في قلوب الشعب والمقاومة فهو يسأل التاريخ ان يسجل هذه الامجاد وهذا الصمود، ثم يبدأ في تفصيل سبب هذه الاستفاقة بظهور علماء وقادة متميزين لهذه الثورة سينطلقون بها من جديد ويجددون دماءها، ثم يذكر الأسماء بدقة حيث قاد هذه الصحوة الجديدة العلامة عبد الحميد بن باديس وثلة من أبناء الجزائر بمشروعهم النهضوي والثوري لإحياء القلوب ودفع النفوس والعزائم من جديد للوقوف في وجه المستعمر، إنها جمعية العلماء المسلمين التي أعطت للثورة روحا جديدة وعزيمة ووعيا لن ينكسر أبدا.

1.4 وفاء الذاكرة وتمجيد الثورات الشعبية وقادتها:

يقوم الشاعر بن زوالي في قمة نشوته بثورة نوفمبر بتذكير المستمع بالثورات الشعبية وانتصارات المجاهدين فيها فيسرد التاريخ المشرف للمقاومة الشعبية التي واجهت الاستعمار ولم يتوان الجزائريون ولم يرضخوا وحملوا لواء الجهاد لمدة قرن ونصف القرن دون هوادة، وقد تمثل ذلك في شجاعة وقوة قادة الثورات الشعبية التي كان الشعب ينهل من انتصاراتها ويستلهم القوة والصمود، حيث ذكرهم الشاعر بدقة وترتيب في صورة سردية معتمدا على تقنية الاسترجاع فب جنس الرواية تقنية يستعملها الراوي في العودة إلى الماضي أثناء السرد القصصي والروائي، يقول الشاعر بن زوالي:

[13] مخطوط قصيدة "**أشهد يا تاريخ**" لمحمد بن الزوالي.

اتفكرنا ماصرا منك و اصدر مدت قرن او نص واحنى في لحباس

من تاريخ أميرنا عبد القادر أسبعطاش أنعام قاومكم يناس

خذا موقف دار واجب هذا البر والدنيا سجال تم الوعد خلاص

ما حبسو رجالنا في كل بر من هذاك الذَاك ديمَ في لحباس[14]

لقد ذكر الشاعر ثورة الأمير عبد القادر مدققا في مدتها بقوله اسبعطاش انعام، ثم تتوالى الثورات دون هوادة بقيادة رجال أولاد الشيخ، بوعمامة، بوزيان، بلحاج، بن حمرا، الشيخ الحداد، فطيمة والمقراني. ويبدو وفاء الشاعر لأبطال المقاومة المجاهدين الأشاوس وتقديره لهم وهو نموذج لكل الشعب الجزائري ، حيث نجده في كل مرة يترحم عليهم ويصفهم بالإطراء وصفات القوة والإقدام فيقول (**أميرنا، رجالنا، يرحم ذوك الناس، صنديد، الحُرّا ، صيد، تاريخو حساس)**

أولاد الشيخ او بوعمامة راه أظهر بوزيان بلحاج يرحم ذُوك الناس

بن حمرا صنديد هَوَّلكم وأقتل أو بمعزة واكثير من هذُوك الناس

الشيخ الحداد والحُرّا تهدر فطيمة هِيا الِي ضربت قْياس

والمقراني صيد فجّأنا لنقر وأظهر في الثَّورا تاريخو حسّاس[15]

يعود الشاعر لمخاطبة المستعمر من خلال نفيه أن ينسى الجزائريون ما فعله بهم طيلة فترة تواجده بأرضهم وانتهاكه لحرماتهم واستباحته لدمائهم ولممتلكاتهم

ماناش ناسيين فينا ما صاير ولّي ينسا قول قَا هامل حَوّاس

لقد تجاوز دور الشعراء في وصف الأحداث ونقلها إلى تقمص دور المشجع والمحفز للشعب والمرشد الواعظ الحارس لقيم مجتمعه خوفا من الانسلاخ الهوياتي الذي تهدف إليه فرنسا لتجريد الشعب من وطنيته وهويته، فنجده يصف الفرد الجزائري الذي ينسى ما فعلته فرنسا أنه لا أصل له ولا ينتمي

[14] القصيدة نفسها

[15] مخطوط قصيدة (**أشهد يا تاريخ)**

لهذا الوطن بل هو مثل العابر بمكان لا ينتمي إليه حيث يستعمل كلمة (**هامل**) وهي في اللغة العامية الجزائرية تطلق على الشخص التائه الذي لا دار له ولا عائلة ولا قرار ولا انتماء، شخص بدون هوية.

2.4 مجازر 08 ماي 1945 وخيانة فرنسا:

لأن تاريخ الثامن ماي تاريخ التغيير والثورة الجديدة للجزائريين، فلقد شغل الكثير من شعراء الفصيح والعامي، لوصف هذه المجازر ونقل أخبار هده الخيانة، ولم يتأخر الشاعر محمد بن زوالي عن هذا الانعطاف المهم في تاريخ الجزائر وفي مسار المقاومة الجزائرية فنجده يقول في القصيدة نفسها:

يلزمها بالرصاص والدم إيشرشر وانضحو بارقابنا والمال أكْدَاسْ

كتْمُوها لَبْطال والقلب معَمر في الخمسة وأربعين قَدوشا والساس

يوم 8 ماي بَدَرتْ نتحير أو عرفتها ضربة الي تُوجع في لراس

واتْوَحَد ذا الشعب ما امَن المنكر هَوّن في لولاد وأقصَدْ جبل اوراس

كانت أحداث 08 ماي ونقض فرنسا لعهودها مع الجزائريين صاعقة نزلت على الشعب وتركت جراحا لم ولن تندمل إنها خيانة لن تنسى، تقتيل همجي وضحايا بالآلاف، حيث يصفها الشاعر بقوله: (عرفتها ضربة الي توجع فالراس) لقد استعمال الشاعر مصطلح الراس ليصف قساوة ما حدث في مجازر الثامن من ماي باعتبار الرأس هو سنام الجسم وإذا أصيب أثر تأثيرا كبيرا على الجسم كله، وهنا يظهر موقع الشعر الشعبي بنقل الحدث التاريخي كما هو بتصوير فوتوغرافي مستعملا الكلمة المباشرة أو بمحاكاة الحدث التاريخي بالإيحاء بصورة تترك الأثر أكثر من نقل الحدث أحيانا. ومن هنا كانت أهمية الشعر الشعبي في التأريخ والنقل فرغم أنه لم يكن فصيحا ولم يستعمل القلم ولم ينتمي إلى الطبقة المثقفة إلا أنه استعمل الكلمة الشفوية المدونة في الذاكرة الجماعية التي تعلمها في الحياة اليومية للجماعة، فيحفظ أسرارها وينقلها المُسِنون[16].وينتقل الشاعر إلى التأكيد على النتيجة العكسية

[16] عبد لقادر خليفي، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة، 1830-1962**، ص 260.

لما أراده المستعمر حيث ظن أنه سيقمع الشعب ويرهبه ويخيفه لكن هيهات لقد اقتنع الشعب وتوحد على قرار الجهاد لقد تحددت الوسيلة والوجهة إنها الثورة والمقاومة المسلحة فيقول:

واتوحَد ذا الشعب ما امن المنكر هوّن في لولاد وأقصد جبل اوراس

ونجد الشاعر هنا يستعمل كلمة (**لولاد**) بدلالات متجاوزة للدلالة المعجمية الواحدة ليصور تضحية الجزائريين، وهي كلمة تعني الأبناء، لتعني هنا الأبناء الأهل الأسرة الزوجة الأملاك لقد ضحى الجزائري بكل هؤلاء ليصعد إلى الجبال ملتحقا بالثوار والثورة التحريرية. كما استعمل الشاعر كلمة (**جبال اوراس**) باعتبار شهرتها في مقاومة الاستعمار للدلالة على كل جبال الجزائر في الشمال والجنوب وفي الشرق والغرب التي كانت قلاعا تحمي الثوار وميادين لمعارك خالدة وقع فيها المجاهدون انتصاراتهم.

3.4 ثورة أول نوفمبر 1954:

نجد الشاعر في قصيدة (يا فاتح نوفمبر) يقوم بتمجيد ثورة نوفمبر والفاتح من نوفمبر بإعجاب وافتخار به وبما حل على الشعب الجزائري بعده من عزة وفخر مما يبين ويؤكد احتضان الشعب للثورة حيث كان الخزان الاستراتيجي الحقيقي للثورة، فيقول:

يا فاتح نوفمبر مفتاح الخير يا مفتاح بلادنا مَزْيَن فَالك

يا مفتاح الباب بعد انكان عسير من بعد الظلما اجلاتْ انوارك

يومك راه اسْعيد نُصرة وتبشير وارزقنا ربي نجحنا بنهارك

احياتْ لقلوب في يومك لا غير واتهزت لبلاد وَطْيًا وجبالك

من كل ثَنِيَا تنادي بالتكبير ها هو ليك اوجود عن طول ايامك

تبقى ذكرى دايما عيد التحرير يحتفلو ذا الشعب يومك مبارك

يؤرخ الشاعر بدقة لانطلاق الثورة المسلحة في نوفمبر ودقِ جرس إعلان العزم على تحقيق الحرية بأي ثمن، والتفاف الشعب كله حول الثورة ومشاركة المرأة إلى جانب الرجل في المقاومة والجهاد. إنها صور حية ينقلها لنا الشاعر كما المراسل الذي ينقل خبرا اليوم بالتصوير المباشر على قناة إعلامية ما، يقول في قصيدة (**اشهد يا تاريخ**):

في الربع اوخمسين بان الصَّحْ واظهر يوم أول نوفمبر دقت لجراس

واتكلم برود من جعبو صرصر وأكثر قيل او قال سمعتها لجناس

الرِيني كُوتِي هَزْرُوحك من ذا البر أهل فاقو ما بقى حتى تَعْفاس

أضربنا عاهد ما بق من يتوخر راجل وامرا ندخلو عرض المرجاس

أما في قصيدة (مبدا الثورة) وصف للثورة ولأسبابها وتبيين أنها ثورة شعب خطط لها رجال وقادة واحتضنها شعب وليس ولم تأت صدفة ولم تكن حرب عصابات متقطعة وغير منظمة كما وصفها الفرنسيون.

يا سايلني نحدثك كيف صرا ونشرحلك أسباب ثورتنا بالذات

أولها مكتوب والثاني قدرا وثالثها موعود في التريخ صفات

ورابعها ذا الشعب مل من الحقرة وخامسها مكتوب والقلوب احيات

وسادسها سَدَاتْ قامت مذكورا من مثل امباديس خلا وصايات

وسابعها قاموا رجال الصبارا الزعامة فايقين للدنيا باثبات[17]

ويؤكد الشاعر مرة أخرى أثر ثورة نوفمبر في النفوس وفي ذاكرة الشعب وكيف أصبحت تاريخا مجيدا وعيدا مقدسا:

نذكر ثورتنا اوفيها نتفكر الربعة اوخمسين منسوخة في الراس[18]

قام الشاعر بذكر ثورة نوفمبر بتاريخها الدقيق الشهر نوفمبر والسنة 1954، مما يثبت هذا التاريخ ولا يمكن أن يُمحى أو ينسى مهما كانت الظروف، باعتبار الشعر الملحون هو شعر شفوي يسهل تناقله كما أنه سهل الإنشاد والغناء مما يجعله يُردد بسهوله على ألسنة الناس والنشء اللاحق فيرسخ الحقائق

[17] مخطوط قصيدة **(مبدا الثورة)**

[18] قصيدة **(اشهد ياتاريخ)**

التاريخية بين المتلقين والمستمعين، كما ينسخ أو يطبع النص أو الصورة فلا يتغير ولا يزول. ويؤكد ذلك الشاعر في قوله:

4.4 مواجهة المستعمر وتأكيد خروجه من الجزائر:

ينتقل الشاعر في الأبيات الموالية إلى توجيه التوعد للمستعمر مباشرة بقوله:

الريني كوتي فَضْ حُكْمك في ذا البر ما تنفع حيلة وما ينفع كَنْباصْ

لجزائر ما بقى فيها تنظر هز أقْلاَعك وروح لبلادك وأخلاص

هذا الوطن صحيح لازم يتحرر يطلع فيه علامنا ضاوي بَقَّاص

مَنْ انْظَم لَبْيات بَالغُش أمعمر أعلى وطني أنموت نسكن في لرماس

بن زوالي راه يطلب في القادر يهزم لسْتعمار و أنولُو لباس[19]

يوجه الشاعر الخطاب مرة أخرى للمستعمر بلهجة حادة وصارمة من خلال قوله (الريني كوتي) وهو يعني به القائد الفرنسي (رونيه كوتي)الذي حكم آخر فترة الجمهورية الفرنسية الرابعة ، وهو من خلاله يستعمل الجزء للدلالة على الكل فهو يخاطب ظاهريا شخصا لكنه يعني في الدلالة الحقيقية المستعمر ككل ودولة فرنسا ككل، وهو شعور جمعي وليس فردي يجتمع فيه كل الجزائريين في كرههم لفرنسا وللفرنسيين وقناعتهم التامة بأنهم يجب أن يرحلوا من ارض الجزائر.

يفصل الشاعر في الأبيات الأخيرة فصلا مطلقا في رحيل الفرنسيين واستبعاده لأي فرصة لبقائهم بعدما قرر الشعب الجزائري ثورته ثورة نوفمبر المجيدة (**الجزائر ما بقى فيها تنظر**). لنصل في البيتين الأخيرين إلى وصف حقده على الاستعمار وألمه لما عاشه وشهده مع كل الجزائريين من معاناة وآلام (**مَن انْظم لبيات بالغُش أمعمر**)، ورغم هذا يبقى إيمانه قويا وثقته بالله كبيرة فيعود للدعاء متوسلا لله أن ينصر هذا الشعب ويحرره من مستعمر غاشم.

[19] مخطوط قصيدة (**اشهد ياتاريخ**).

5.4 ذكر العلم و رمزيته في سيادة الشعوب وحريتها:

يبدو إيمان الشاعر المطلق بالانتصار بعد ثورة نوفمبر وأن العلم الجزائري سوف يرفرف في سمائه لامعا، حيث يعتبر العلم من الأيقونات الوطنية التي لا تكاد تخلو قصيدة شعبية من توظيفها باعتبارما يرمز إليه من سيادة وحرية للأوطان فيقول بن الزوالي:

هذا الوطن صحيح لازم يتحرر يطلع فيه علامنا ضاوي بقاص[20]

ويعود الشاعر ليوثق لحظات سعادة وفرح الشعب الجزائري بالاستقلال وافتخاره واعتزازه برفع علم بلاده في سماء الحرية، بعد ويلات وعذابات الاستعمار والآلام التي تجرعها الجزائريون من أبشع استعمار على وجه الأرض، فيصف الشاعر فرحة الجزائريين وهم يرون العلم يرفرف في بلادهم حرة مستقلة؛ فيقول في قصيدة **(يا سعدي ببلادي)** عن استقلال الجزائر:

وزدهرت وزهات بالراية الخضرا واعلامات يرفرفو نجمة وهلال

واعلام البهجة ايشير بالنصرة ويرفرف خفاق يحياو لبطال

حكومتنا قايمة والوزاره المسؤولين أولادنا وارتاح البال

جمهورية انشات من ناس الثورة المخلصين الي قدو للنضال

شعبية نظامها بالماشورة اشتراكية بناتها كل حد يسال

عَمْرَت ضَرْك بلادنا تَل وسحَرا نمشو تحت اعلامنا عَزْ وادلال

احمدْ رَبِ يا بنادم بالكثرة رانا دولة ما لحق بِنا مُحال

اعلامك منصوب بالراية الخضرا انظر فيه اتفكر أيام المحال[21]

[20] مخطوط القصيدة نفسها.

[21] قصيدة (**يا سعدي ببلادي)**

الخاتمة: نخلص في الأخير إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- يعتبر الشعر الملحون من أهم الأجناس الأدبية التي أرخت للثورة التحريرية الكبرى ولتاريخ الجزائر عامة.
- يعد الشعر الملحون من أدق الوثائق التي يمكن اعتمادها في التأريخ للأحداث باعتبار الشاعر ابن بيئته يكتب عنها ولها، ويعتبر هو الأكثر احتكاكا بالوقائع في ساعة حدوثها ومكان حدوثها.
- تعتبر الثورة قضية مركزية في قصائد الملحون، اهتم بها الشعراء ومجّدُوها إيمانا منهم بعدالتها.
- أخذت موضوعة الثورة حيزا مهما في شعر محمد بن الزوالي حيث جاءت قصائده تتفجر وطنية وحماسة سواء من حيث الموضوع أم من حيث اللغة والأسلوب.
- واكب شعر محمد بن الزوالي أهم الأحداث الثورية الوطنية والمحلية، كما أنه عاد لما قبل الثورة وتجاوز إلى ما بعدها واصفا الثورات المقاومة الشعبية وقادتها الأشاوس، كما وصف في بعض قصائده فرحة الاستقلال والحرية.
- لم يلق محمد بن الزوالي حظه من الاهتمام والدراسة رغم الإرث الشعري الكبير الذي تركه في مختلف الأغراض الشعرية.
- لابد من الاهتمام بسيرة محمد بن الزوالي وبنضاله وجمع أعماله الشعرية التي لا تزال مخطوطة في مؤلفات أكاديمية ليسهل على الباحثين والطلبة دراستها.

الهوامش:

أولا: المصادر:

1- مخطوط قصيدة (**اشهد يا تاريخ)**

2- مخطوط قصيدة **(مبدا ثورة)**

3- مخطوط قصيدة **(يامحبوب نحدثك)**

4- مخطوط قصيدة **(ياسعدي ببلادي)**

ثانيا: المراجع

1- باية كاهية، **الأدب الشعبي الجزائري**، نواصري للطباعة والنشر، الجزائر 2022.

2- التلي بن الشيخ، **دور الشعر الجزائري الشعبي في الثورة من 1830 إلى 1945**، مخطوط 1977.

3- محمد المرزوقي، **الأدب الشعبي**، الدار التونسية للنشر، ط01،1967..

4- نور سلمان، **الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر**، دار العلم للملايين، لبنان. 1989.

5- العربي دحو، **الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ح1، 1989.

6- عبد القادر خليفي، **محطات من تاريخ الجزائر المجاهدة، 1830-1962**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.

7- عبد الله الركيبي، **الشعر الديني الجزائري الحديث**، ج 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

ثالثا: المجلات:

1- آمال لواتي، الحدث التاريخي في الشعر الجزائري المعاصر، **مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، عد15. الجزائر، 2013 .**

رابعا: المواقع:

1. https://www.youtube.com/watch?v=z9BxwHswLxQ